سيدنا

للأستاذ أحمد أمين

كان لسيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن كتّاب في حي وطني في قسم الخليفة، أسلمني له أبي وأنا في السادسة من عمري.

كان هذا الكتاب بيتاً من بيوت الوقف، يتكون من طابقين، طابق أرضي فيه حجرتان احداها سبيل لسقي الماء كان قد هجر عندما ذهبت اليه، والأخرى لسيدنا ينام فيها أحياناً، وفي الطابق العلوي حجرتان كذلك، احداها لأولاد الكتاب يقرأون فيها، والأخرى لسيدنا أيضاً، وبين الحجرتين «فسحة» في أحد أركانها زير ماء لانعرف لونه مما توالى عليه من أحداث الزمان، وعليه غطاء من خشب، قد كسّر ولم يهتم أحد باصلاحه، وعلى الغطاء كوز صفيح قد شُد بحبل في مسمار في الحائط، حتى لايذهب به الأولاد من مكان الى مكان، وخشية أن يقع الكوز في أسفل الزير، فاذا كان مربوطاً ووقع استطعنا أن نشده بالحبل، والماء إن تلوث بوقوع الحبل فيه، فهو أقل ضرراً من مد اليد عارية وغوصها لاستخراجه.

وأدوات الكتاب: حصير فرش على البلاط، يبلى أحياناً فتتناثر عيدانه، ومع ذلك يبقى الى أن يحنن الله على سيدنا فيشترى حصيراً جديداً، وصندوق من صناديق السكر أو الجاز وضع في زاوية من زوايا الحجرة، نضع فيه ألواحنا — وهذه الألواح أكثرها صفيح، تسوَدّ أحياناً ويذهب طلاؤها حتى لاتتبين الكتابة منها — وكيف يبين أسود من أسود؟ وأقلها خشب قد طلي بدهان أبيض، وله أطار لُوِّنَ بلون بُني، وذلك خاص بأولاد الذوات وأشباههم.

هذا كل ما بالكتاب من أدوات، ومعاذ الله أن أنسى شيئاً أهم من ذلك كله، وهو مجموعة عصي من جريد النخل، تختلف طولاً وقصراً، أما القصيرة فيستعملها سيدنا لمن يُسمّع عليه اللوح أو «الماضي» فيخطىء فتدركه هذه العصا، وأما الطويلة فعند ما يرى سيدنا طفلاً في آخر الحجرة لايهتز وقت قراءته أو يتهاون في حفظه، فما يشعر إلا والعصا الطويلة نزلت عليه وصحبها من سيدنا «اهتز ياولد» — وقد كان لهذه العصي ماطال منها وما قصر، أثر في نفوسنا لاينكر، فكثيراً مارعبنا لأن خيالنا صوّر لنا أن سيدنا يريد أن يهوى علينا بعصاه، وفي الواقع لم يكن شيء من ذلك، وإنما هو الرعب ملك نفوسنا، ويحصل هذا أحياناً حتى في البيت، فننسى أننا خرجنا من الكتاب، وأننا بين أهلينا، فنرتجف بغتة لحركة تشبه حركة سيدنا في الكتاب.

والى جانب هذه العصى «فلقة» وهي عصى غليظة من خشب متين قد ثقب في وسطها ثقبان يبعد ما بينهما نحو شبر، وركب في هذين الثقبين سير من جلد أو نحوه، فاذا شكا الولد أبوه أو غضب عليه سيدنا أدخل رجليه في هذا السير ولواه عليهما، وأمسك بطرفي الفلقة ولدان كبيران شديدان من أولاد الكتاب، فلم تستطع الرجلان حركة، وانهال عليه سيدنا ضرباً بالعصا والولد يصيح «في عرضك ياسيدنا» «حرمت» «أتوب»! ولست أنسى مرة أفرط فيها سيدنا فشق عقبي وسال منه الدم؛ وكان عزائي الوحيد أني مكثت بعيداً عن سيدنا نحو أسبوعين.

وهذا كل ما كان في الكتاب من «موبليات».

كان سيدنا يحفظ القرآن حفظاً جيداً، ويكتب كتابة عاجزة، وهذا كل ماله من ثقافة، كان يطوف في الصباح على البيوت يقرأ فيها ماتيسر من القرآن، ويخرج من بيت إلى بيت حتى يتم دورته، وكان موظفاً في مسجد يؤذّن فيه، فاذا حان وقت الظهر أو العصر خرج من الكتاب للأذان والصلاة — وفي غيابه صباحاً أو ظهراً أو عصراً يتركنا لعريف يقوم مقامه، ولكن كان العريف ولله الحمد أهون علينا من سيدنا، فكنا نتنفس الصعداء إذا خرج، ونصاب بالرعشة إذا حضر.

وكان برنامج الكتاب ينحصر في كلمة هي «تحفيظ القرآن» فيبتدىء بتعليم حروف الهجاء على طريقة غريبة، فأول درس كان هو «ألألف» وهي كلمة حفظتها ولم أفهمها إلا وأنا طالب في مدرسة القضاء. إذ فهمت أننا لو تهجينا كلمة ألف لكانت ألفاً ولاماً وفاء، وما أدرى ماالسر في هذا البدء على هذا الوضع — حتى إذا عرف الولد شيئاً من القراءة والكتابة بدأ بكتابة جزء من القرآن في اللوح يحفظه كل يوم وهو في اثناء ذلك «يثبت الماضي» ويمضى النهار كله في هذا الباب، فلا إملاء ولا حساب، ولا يعرف سيدنا شيئاً من ذلك، ولا نستريح من هذا العمل إلا وقت الغداء - فاذا حان الظهر جمع «سيدنا» من كل ولد بمليمين أو ثلاثة

أو خمسة ثم بعث بولد كبير فأتى له بماجورين مملوءين ، أحدهما فيه قليل من دون نابت وكثير من مرق ، والآخر مملوء خللا عائه وخله ، وتحلق الأولاد حلقة ، وأخرج كل رغيفه ، وكان قد أحضره معه في الصباح تحت إبطه ، وضربوا بأيديهم في الماجورين وأكلوا هنيئاً مريئاً — وقد رحمني الله من تمثيل هذا الفصل إذ كان بيتنا بجوار الكتاب أستطيع أن آكل فيه وأعود — وبين هؤلاء المريض والقذر ومن تلوثت يده بالحبر .

لا تعجبنْ من هالك كيف توى بل فاعجبن من سالم كيف نجا

***

كان « سيدنا » غريب الأطوار عرف في الحي باسم الشيخ سيد المجذوب ، يلبس المرقع من الثياب فلم أره يوماً لبس «مركوبا» جديداً ولا عمة نظيفة ولا قباء ولا عباءة جديدين ، فكأنه كان يتحرى القديم من كل شيء ويشتريه ، كان يتزهد في أكله ولبسه وحديثه ، ويهزأ بالناس ولا يعيرهم التفاتا ، فهو يمشي مسرعاً مشياً يشبه الجري ، ويأكل في الشارع وهو على هذه الحال ، وإذا ناداه مناد لا يلتفت إليه ، فكان بذلك يلفت أنظار الناس والأطفال ، ويعجب منه بعضهم ، ويتبرك به بعضهم ، وكان في المجالس العامة غريباً ينتحي ناحية وحده ويفر من الناس ويستوحش منهم ، وفي مجالسه الخاصة واعياً أنيساً لطيفاً .

لم أره مرة يقرأ في كتاب ، وما أظنه كان يعرف ذلك ، ولكني مع هذا أذكر له حادثة حيرتني حقاً — فقد خرجت من كتابه ، وأتممت التعليم في مدرسة ابتدائية ، ثم قطعت مرحلة بعدها في التعلم — ثم ذهبت إلى مدرسة القضاء ومكثت فيها نحو أربع سنوات ، ثم لقيت سيدنا في الطريق فسلمت عليه في احترام وإجلال اعترافا بفضله عليّ في أول مراحل التعليم ، ولكني أطوى بين جنبيّ إدلالاً بنفسي عليه ، فأين هو الآن مني ؟ لقد درست طبيعة وكيمياء ، ودرست رياضة نظرية واسعة من حساب مثلثات وتوافيق وتراتيب ولوغاريتمات ، ودرست علوما دينية مختلفة الأشكال والأنواع ، وعلوما مدنية من تاريخ وأصول قوانين ونظام إدارة وما إلى ذلك — فأين سيدنا من هذا كله وهو لاحظّ له من علم إلا أن يحفظ القرآن ، ولكن ما أدهشني حقاً أنه أخذ يسألني عن حالي وجرى من ذلك إلى الأدلاء برأيه في العالم وفلسفة الكون عن طريق صوفي ، فإذا أنا أسير معه ملتذاً من حديثه معجبا بقوله إعجابا يفوق ما كنت أضمره لأساتذتي في المدارس العالية ، وإذا أنا أذهب معه حيث يذهب وأجلس معه حيث يجلس حتى أتم حديثه الممتع اللذيذ في ساعتين أو أكثر ، ولوددت أنه طال أكثر مما كان — لست أذكر الآن حديثه وقوله ، ولا أذكر ماذا كانت نظراته في الحياة ، ولكني أذكر لذة حديثه وفائدة درسه .

***

ثم راحت أيام وجاءت أيام ، وإذا لي ولد ، وإذا بي أرسله إلى « روضة الأطفال » ، وإذا مكان الكُتّاب ذي السبيل والحصر ، بناء فسيح ذو حديقة غناء ، وتخت وأدوات شتى ، ومكان العصى و « الفلقة » ، بيانو وآلات موسيقية ، ومكان مواجير الفول والخلل ، لبن وبسكوت في الساعة العاشرة ، وأكل نظيف يشرف عليه الطبيب في الظهر ، ومكان برنامج كتابنا الذي ليس فيه إلا حفظ القرآن برنامج دقيق مفصل محدود بالساعة والدقيقة فيه غناء وفيه لعب ، وفيه مبادىء القراءة ، وفيه ماشئت من تنوع واختلاف ، ومكان سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن آنساتنا العزيزات .

وأتى ابني يوماً يقول إن « أبلة » فلانة علمتهم اليوم درساً جديداً ، قالت هذه « ستى » ا ، وهذه « ستى » ب ، وستى ا لا شيء عليها ، وستى ب من تحتها نقطة ، فقلت أين هذا مما كنا نتعلمه من أ الف ، بابا ليف ، بوبا واو بي بابيه » .

ورأيته ينشد أناشيد « سمير الأطفال » ونحوها فقلت أين أنت من أبيك ، وقد كان ينشد في العصر قبل الذهاب إلى البيت الأناشيد الدينية .

ورأيته زُكم فيجلس في البيت ثم يذهب إلى المدرسة فتأبى عليه إلا أن يأتي بشهادة طبيب بأنه برىء ولم يكن مرضه معدياً ، فقلت لها الله زماناً لم نكن نعرف فيه طبيباً ، وكان حولنا في الكتاب مرضى لا يعرفون أن الزكام مرض ، وكان أصحاؤهم ومرضاهم يشربون من زير واحد بكوز واحد .

ورأيته في سنه لا يحفظ شيئاً ، وكنت وأنا في سنه أحفظ جزءاً كبيراً من القرآن .

ورأيته يعرف من الأشغال اليدوية والرسم والتلوين مالا أعرفه إلى اليوم .

[البقية في أسفل الصفحة التالية]